حلم النهضة بين علي مبارك وعبدالناصر والسادات

المصري اليوم

بقلم ***د.إبراهيم البحراوي*** ٢٠٠٨/٩/٢٣

لا شك أن الدراما التليفزيونية التاريخية تمثل فرصة لنا في رمضان للتأمل في الماضي والحاضر واستخلاص عبرهما ودروسهما لصياغة حلم أفضل في المستقبل.

في تمثيلية علي مبارك نري الشاب الفلاح المصري الذي تعلم في المدارس التي أنشأها محمد علي باشا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، ثم أرسل إلي بعثة لفرنسا لدراسة الهندسة العسكرية.

كان الشاب مفتونا بأستاذ جيله الذي سبقه في تجربة طلب العلم في فرنسا، الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي الذي عاد وفي ذهنه مشروع كامل لنقل العلوم والمعارف بالترجمة إلي اللغة العربية وتحديث المدارس المصرية،

وهو نفس الحلم الذي عاد به مبارك من البعثة. أول الدروس التي استوقفتني هو الدور المركزي الذي تلعبه الصفات الفكرية والعاطفية والأفق الذهني والسمات الشخصية للحاكم في تشكيل وجه الحياة في مجتمعنا النهري، الخاضع لسلطة مركزية بحكم حاجته إلي دورها في تنظيم الري،

فالسماء هنا لا تمطر بالدرجة التي يشرب فيها الزرع دون أن يحتاج إلي الترعة ومن يشقها ويشرف علي حركة المياه فيها، هذا ما يجعل الفلاح خاضعاً كما يري جمال حمدان في كتابه شخصية مصر. كانت صفات محمد علي الشخصية إيجابية منفتحة علي العلوم والمعارف الحديثة رغم أن نصيبه من التعلم قبل أن يتولي حكم مصر كان ضئيلاً للغاية،

ومن هنا كان يستمع كل يوم لكتاب، وأنشأ شبكة واسعة من المدارس في جميع مجالات العلم وأرسل البعثات وعندما عاد علي مبارك في نهاية الأربعينيات من القرن التاسع عشر من البعثة كان عباس حلمي قد تولي الحكم.

وكان رجلاً صاحب أفق متوسط الاتساع فأغلق معظم المدارس وسرح طلابها ومعلميها واستخلص النبهاء وجمعهم في مدرسة واحدة اسمها المفروزة، ونفي رفاعة رافع الطهطاوي إلي السودان لما أبداه من اعتراضات، عمل علي مبارك في مدرسة الهندسة العسكرية إلي أن توفي عباس حلمي وجاء سعيد الذي كان معادياً للتعليم فأغلق ما تبقي من مدارس،

ووجد علي مبارك الضابط المهندس نفسه طريداً في الشارع ليتحول إلي تاجر أثاث ومفروشات منزلية.كانت النقلة في حياة وأحلام النهضة لدي علي مبارك مرتبطة بمجيء حاكم جديد هو الخديو إسماعيل الذي كان زميلا له في بعثة فرنسا.

لقد أبدع كاتب هذه الدراما عندما استعاد الكلمات التالية من صفحات التاريخ ووضعها حية علي لسان علي مبارك، بعد أن طلب منه إسماعيل أن يعاونه لجعل مصر قطعة من أوروبا.

وقال علي مبارك لزوجته إنني أحلم بمصر خالية من السقا -وهو الرجل الذي يحمل المياه بالقربة إلي البيوت- وأضاف مبارك: أريد أن أري كل بيت وفيه صنبور مياه عذبة والشوارع مضاءة بفوانيس الغاز. تري هل يتصور أحد من المصريين الآن في معظم مدنها وقراها أن مصر في عام ١٨٦٣ أي منذ حوالي مائة وخمسين عاماً فقط كانت بيوتها خالية من صنابير المياه،

وأن أجدادنا كانوا يشربون من الزير ويستحمون في الطشت، وهو وعاء معدني ضخم اختفي مع ظهور

الغسالات الكهربائية كان يستخدم حتي الخمسينيات من القرن العشرين لغسل الملابس باليد، وهو الذي يظهر كفلكلور في الأغاني والأفلام.

لقد خطط علي مبارك للكثير من علامات المعمار الجميل في شوارع وسط البلد وفي المبني البديع لكوبري قصر النيل المحلي بالأسدين، ومبني مجلس الشوري الذي فقدناه في الحريق، ولمنشآت تعليمية وحيوية عديدة في العاصمة.

لقد تحرك علي مبارك في حدود الرؤية التي أملاها عليه الحكام وهو ما يجعل دور المثقف تابعاً للحاكم. هل يسمح لي القراء أن أقول إنني أحترم هذه النهضة التي طورت حياة مصر الحديثة مع ملاحظتي أنها تركت الملايين من الفلاحين معدمين وحفاة وبدون مياه عذبة وبدون إنارة لتنهش البلهارسيا أبدانهم في الترع، لقد كان ذلك أفق الحاكم الذي ركز علي جوانب المدنية متناسياً البعد الاجتماعي، ولكن علينا أن نحسب له إنجازاته ونسجل في نفس الوقت عيوبه ونحن ننظر للحاضر والمستقبل.

قبل أن أشير إلي جمال عبدالناصر وإلي أنور السادات هل يسمح لي أن أطلب من القارئات العزيزات والقراء الأعزاء الذين يسجلون آراءهم علي طبعة الإنترنت أن يضعوا أمنيتي التالية في الاعتبار لننتفع بالحوار، إنني أتمني أن نتعاون جميعاً في بناء رؤية مستقبلية أفضل لمصر دون أن نتحزب لتأييد حاكم وهدم آخر. إننا لن ننجح في بناء حلم أفضل للنهضة المصرية - ما لم نعترف لكل حاكم مصري سابق بإنجازاته قبل أن نهوي بالمطارق علي إخفاقاته،

فالتجربة البشرية فيها السلبيات والإيجابيات، من يستطيع أن ينكر أن الضابط الشاب جمال عبدالناصر الذي أصبح حاكماً لمصر كان مشغولاً بمعاناة الفلاحين وتوفير مياه الشرب النظيفة والمدرسة والمستشفي والإنارة والملكية الزراعية لهم؟

إن الإنصاف يقتضي أن أعترف لعبدالناصر بإنجازاته الاجتماعية التي نقلت الكتلة السكانية المصرية الأكبر من العدم إلي مصاف الحياة الحديثة. ومن ذا الذي يستطيع أن ينكر أن الضابط الذي غامر بمستقبله بالكفاح ضد قوات الاحتلال محمد أنور السادات قد أطلق قوي مصر الحضارية العملاقة في حرب أكتوبر ١٩٧٣، وأنه زرع الصحراء بالمدن الجديدة وأحال الساحل الشمالي القفر إلي واحة عمران، وأنه وضع أساس تعمير صحراء سيناء بالمدن والعمران.

أليس من واجبنا أن نجمع هذه اللبنات التي تركها كل حاكم لنصوغ منها حلماً جديداً متكاملاً ينهض بمصر دون أن يهمل الملايين المكونين للكتلة السكانية العريضة ويتركها نهباً للبؤس والجريمة والإرهاب.